الرسول - صلى الله عليه وسلم -
القدوة في التربية

لنا في رسولنا الأعظم الأسوة الحسنة ، فقد كانت حياته- ﷺ - مدرسة تعلم فيْها الصحابة رضوان الله عليهم وسار على منهجها المحيطون به ولا عجب في ذلك فهو المبلغ عن ربه ، وهو القدوة الحسنة وحركاته وسكناته تطبيق عملى لمنهج القرآن ، فهو الداعية الفاهم لدعوته ، والمربي الذي أوتي كل صفات التربية ، فوصل أصحابه بالله ، ووصلهم بالقرآن وهذب سلوكهم وأخذ بأيديهم إلى طريق الخير والرشاد . وجعل للتربية مراكز ومدارس :

١- جعل من دار الأرقم مكاناً للتربية وتدارس آيات الله الكريمات وغرس المفاهيم والقيم التربوية الصالحة التي تسمو بالفرد .

٢- واتخذ- ﷺ - من مسجده مركزاً لدعوته يؤمهم فيه للصلاة ، ويتلو عليهم ما نزل من محكم الآيات ، ويعقد فيه مجالس العلم والمدارسة ، ويقابل وفود القبائل .

" ونجحت تربيته نجاحاً ليس له مثيل في تاريخ البشرية ، ووصل بمجتمع المدينة في واقع الحياة غاية من الرفعة والسمو لم يبلغها الفلاسفة والمفكرون والمصلحون في الأماني والخيال ، ودل نجاحه على ما تستطيع التربية – وفق منهج القرآن – من تغيير للأنفس وسمو بالمجتمع ورفعة بالبشرية إلى أسمى الآفاق "[1]

يتعلق الناس بالدعاة والمصلحين وأصحاب السير الحسنة ويزداد التعلق بهم فيأتمرون بأمرهم ، وينفذون مطالبهم ، فما سبب ذلك ؟ . . . هذا راجع في حقيقة الأمر إلى قناعة المرء ويقينه إذ لو قلت لإنسان ما هذا ماء بارد ربما يصدقك القول وربما يكذبه ، لأنه لم يصل إلى مرتبة اليقين ، فإذا تحسس الماء أو شربه ووجده بارداً اقتنع ووصل إلى اليقين ، فإذا ما التمس الناس في المصلحين

١- منهج القرآن في التربية ، محمد رشيد ، مؤسسة الرسالة ص ١٢ .

القدوة وجادة السلوك والصواب مرات ومرات ، وصل بهم الأمر إلى اليقين المطلق فيصير طوع هؤلاء المصلحين والدعاة .

فما ظنك بمحمد- ﷺ - ، وما عهد الناس عليه إلا الصدق ، وما لمسوا منه غير الأمانة ، حتى أسموه الصادق الأمين ، وقد رأوا من سيرته الآية تلو الآية والموقف تلو اللآخر فيزيدهم يقينا إلى يقين ، حتى غدا النبى- ﷺ - بالنسبة لهم المثال الكامل في القول والفعل والتحرك والسكون والنوم واليقظة ، وفي كل حال .

وليس بغريب إذن أن يأمر فيطاع ، ويشير فتلبى إشارته . . تأثير يصل إلى أغوار النفس ويشمل أبعاد الروح ، وجماع العقل كله ، يؤكد هذا ما نورده من مواقف تبرز أثر هذه الشخصية وتأثيرها فيمن حوله .

ففى تحريم الخمر مثلاً ، وكان العرب يهيمون بها ويعشقونها ويتغزلون فيها ، ولكن ما أن نزلت آية تحريمها حتى أقلع عنها الناس وهجروها إلى الأبد . عن أبى بريدة عن أبيه قال : " بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر إذ قمت حتى آتي رسول الله - ﷺ - فأسلمُ أصحابي فقرأت الآية عليهم إلى قوله ﴿ ....فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩١] . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقى في الإناء ، فأراقوا ما في كؤوسهم . ثم صبوا ما في باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا " [١]

أية طاعة بعد ذلك ؟ وأية قناعة وأية تلبية ؟ يصدر الأمر من السماء فيبلغه النبى الخاتم- ﷺ - فينفذه المسلمون دونما نقاش أو جدال ، لأنهم يثقون في المبلغ عن ربه بعد أن رأوا من آيات صدقه ما يفوق الخيال والاحتمال .

* * * * *

١- رواه ابن جرير بسنده عن (تفسير ابن كثير) .

وتبرز التربية والدرس الخلقي واضحاً جلياً في قصة الغامدية :-" جاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرني ، فردّها ؛ فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ فوالله إني لحبلى . . . قال فاذهبى حتى تلدي . قال : فلما ولدت أتته بالصبيّ في خرقة وقالت هذا قد ولدته ، قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تطعميه ، فلما فطمته أتته بالصبيّ في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبيّ الله قد فطمته وقد أكل الطعام .

فدفع الصبيّ إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجهه فسبَّها ، فسمع نبيّ الله -ﷺ- سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد ، فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت " [1]

وروس في التربية نتعلمها منك يا معلم البشرية :-

- الحرص على تنفيذ حدود الله فلا شفاعة ولا محاباة في إقامة العقوبة بعد أن أقرت الغامدية واعترفت بفعلتها .
- عدم التسرع في إصدار الأحكام ، وترك الفرصة للمذنب كي يراجع نفسه ، فقد ترك لها الفرصة حتى وضعت ، وأمهلها حتى كبر وليدها .
- احترام الإنسان وتقديره حتى ولو كان مذنبا ، فقد غضب- صلوات الله عليه-من خالد عندما سبها (وهي المذنبة) .
- ثم تقديره للمسلم واحترام الميت ، حيث صلى عليها بعد موتها ياله من معلم رائع !! وياله من دين قيم !!

١- رواه مسلم في كتاب الحدود .

ثم انظر إلى عظمة التربية في قضائه وفصله بين المتخاصمين وكيف يخاطب الضمير البشري ليفيقه من عفوته ويوقظه من سباته : " عن أم سلمه - رضي الله عنها - قالت :

جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله - ﷺ - في مواريث بينهما قد درست[1] ، ليس عندهما بينة[2] : فقال رسول الله - ﷺ -:

" إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، لعل بعضكم أن يكون ألحن[3] بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم بما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة .

فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي ، فقال رسول الله - ﷺ - أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما ، ثم استهما[4] ثم ليحلل كل منكما صاحبه [5] .

حتى في القضاء يضع لنا أستاذ البشرية ومعلمها الأول مبادئ تربوية تكفل للقضاء نزاهته :-

- البصر بحقيقة القضية وأبعادها .
- الرجوع إلى الضمير الحي الخالص ، والنفس البشرية وما فيها من صلاح وخوف من الله - عز وجل - والتذكير بعاقبة الظلم .
- الحرص على الأخوة والإنسانية بين الناس .

ثم انظر إلى رحمته - ﷺ - بالإنسان ، وحرصه على إنسانيته وكرامته ، وكان يعلمها الصحابة في كل وقت وفي أية مناسبة :

١- درست : قدمت وانتهت .
٢- بيّنة : دليل أو شهود .
٣- ألحن : أظهر .
٤- استهما : اقترعا .
٥- رواه الإمام أحمد .

يقول ابن مسعود :

" كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم يا أبا مسعود " فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله - ﷺ - ، وإذا هو يقول :

" اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام " .

فسقط السوط من يدى من هيبته ، وقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : أما لو لم تفعل للفحتك النار "

ومن عجيب أمر هذا المعلم الأول سيد الأولين والآخرين محمد- ﷺ - أن لا يكتفى بالقول النظرى عن التربية ، إنما يغتنم الفرصة والمناسبة العملية ، ليطابق القول بالعمل ، وتلك قمة العظمة .

حتى في كلامه وسلوكه يقطر رحمة ويفيض حناناً ، لأنها رحمة من عند خالق الأرض والسماء :

" فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك "

ولأنه - ﷺ - لا ينطق عن الهوى ، فقد جاء كلامه ومنطقه موافقاً أفعاله وتحركاته ، ولم يدعه ذلك للتعالى والتفاخر كما يعترى بعض المصلحين والدعاة حين ينقاد الناس لهم ، فيحيطون أنفسهم بهالة من الأبهة والفخامة " ولقد ابتدع رجال الدين في أوربا كثيراً من الأساطير والألغاز ، وأحاطوا العقيدة السمحة بكثير من الغموض والأسرار حتى يكون لهم على نفوس الناس سلطان ويكون لهم في الحياة عمل . يحلون الرموز ويكشفون عن الأسرار ، فلا يتوب مذنب ولا يصلى عابد ولا يدعو إنسان أو يتصل بخالقه أو يفارق الدنيا إلا على يد كاهن أو قديس .

وبدأ في عهد النهضة كثير من العلماء يتحررون من أسر رجال الدين ، وأطلقوا لعقولهم العنان فكان الصدام بين الدين والعلم ذهب ضحيته كثير من العلماء والمفكرين ، وانتهى بتحرير الفكر والخروج عن الكنيسة والدين "[1]

" وكانت النبوة في أذهان الناس مختلطة بكثير من الأوهام والأساطير والخرافات ، وخرج أهل الكتاب بأنبيائهم عن طبيعتهم البشرية ، وضلت البشرية طويلاً بخلطها بين مقام الرسالة ومقام الألوهية ، فنشأت أساطير النبوة لله . . وأحيطت العقيدة بالغموض والألغاز والأحاجي ، فقضى القرآن على كل هذه الأباطيل وأكد بشرية الرسول - ﷺ - الكاملة ، فهو لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولاضراً إلا ما شاء الله .[2]

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ ﴾ [الأنعام:٥٠]

وإذا كانت عظمة النبي في بشريته ، وعبقريته في أميته فقد ألح القرآن على بشرية النبي ، وقال :-عليه الصلاة والسلام- وردد كثيراً للصحابة " إنما أنا بشر "

ويطلب منه القرآن الكريم أن يعلن للناس ذلك :

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ [الأعراف:١٨٨]

ويقول -عزوجل- :

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [الكهف:١١٠]

١- منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ص ١٢٨ .
٢- مهج القرآن في التربية محمد شديد ص ١٣٢ .

وفي طول القرآن وعرضه آيات بينات تثبت للناس بشرية المصطفى-عليه الصلاة والسلام - ، وأنه منهم خلق من لحم ودم ، وكان ذلك مما أكد دعوته ، وقوى حجته وجعله الأقرب والأمكن في قلوب أتباعه ، ومن الآيات التي دلت على بشرية النبى المصطفى- ﷺ -:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]

وقوله -عز وجل-:-

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ...﴾ [الإسراء:١]

وقد سار على نهج المصطفى- ﷺ - في التربية الخلفاء الراشدون - رضوان الله عليهم أجمعين ، بعد أن عرفوا منهجه التربوىّ واستوعبوا قواعده ، فسارت الدولة الإسلامية في دربها الصحيح رقياً وصعوداً لتسود العالم كله وتكون شمساً ينير شعاعها الوهاج هذا الكون الذي غيب جماله ظلام الكفر والجهل .

فهذا أبو بكر الصديق يلقن المجاهدين في سبيل الله أثمن دروس التربوية وهو يوصيهم بما أوصاهم به النبى من قبل " لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . .

- لا تغلوا : لا تخونوا .
- لاتمثلوا : لاتشوهوا جثث القتلى .
- لا تعقروا : لا تقطعوا .
- الصوامع : الأديرة وأماكن العبادة .

وكانت خلافة الصديق امتداداً للمعصوم -ﷺ- فترسم خطاه في كل حركاته وسكناته حتى لنقول عنه إنه متبع وليس بمبتدع ، اتبع المنهج التربوى النبوى ، حتى في محاربة المرتدين لأنهم منعوا الزكاة التي كانت تؤدي في حياة النبى -ﷺ-. ولم يكن ما فعله الصديق بدعاً ، فهو الرفيق والصديق والصاحب في الهجرة .

آمن بالنبى -ﷺ- حين انفض الناس عنه وصدقه في حادث الإسراء والمعراج ، حين كذبه المشركين وقال لهم حين رووا له ما قال النبى عن رحلة الإسراء إن قال لكم ذلك فهو صادق ، حتى ولو قال ما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في أمر السماء أفلا أصدقه في حادث الإسراء والمعراج ؟؟.

أعطانا الصديق – رضى الله عنه – درساً تربوية في أصول الصداقة وواجباتها قبل أن يلي أمر الناس (عزز النبى -ﷺ- بالكلمة) وعزز جانبه بمساعدته بما له ثم أعز؛ بالسير على نهجه في التربية بعد وفاته . . فكان بحق نعم الرفيق ونعم الصديق ، واستحق تكريم المولى -عز وجل- بالإشارة إليه في قوله تعالى:-

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠]

كما كان لعمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين منهجه المميز في التربية نهلاً من ينبوع المعلم الأول حضرة النبى -ﷺ- " فقد كان مربياً بطبعه

وفطرته ، فكان أستاذ التربية في المدينة ، يربي في المسجد وفي السوق ، وكان على كل حالاته مربياً " [1]

" فقد جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه " كما أخبر بذلك سيد المرسلين محمد - ﷺ - .

كان -رضوان الله عليه - شديداً في معاملة الناس (شدة في أخذ الحق من قويهم لضعيفهم) وكان عطوفاً عليهم غاية العطف كعطف الأم على وليدها . . عطفاً جعله يضمد جراح (جدى) يجفف له دمه الذي ينزف منه ليخفف عنه آلامه وهو يقول له : " والله إنى أخاف أن أسأل عنك يوم القيامة "

أسلوب فريد في التربية يجمع بين الشدة واللين . . حتى لو أغلظ في معاملة امرىء سرعان ما يذهب إليه معتذراً . . ليطيب خاطره .

" مر في سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضاً في طريق ضيق ، مخفقه بالدرة (العصا) وقال له : أمط (أفسح) عن الطريق يا ابن سلمة ، ثم دار الحول ولقيه في السوق فسأله : أأردت الحج هذا العام ؟ . . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة استعن بهذه ، واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول ، قال إياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها ، فقال عمر : أنا والله ما نسيتها " ومن عجيب أسلوبه الرائع في التربية أنه كان يحاسب نفسه ، ويحاسب أهله حساباً عسيراً ، حتى أنه كان إذا نهى عن شيء جمع أهله وقال لهم : إنى قد نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإنى والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى ، فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر " [2]

١- منهج القرآن في التربية ص ٣٧ ، ٣٨ .
٢- ابن الجوزى وابن سعد .

وليس أدل على هذا العدل الاجتماعى وأسلوب المساواة وعدم المحاباة في التربية من أمر عمرو بن العاص بمعاقبة ابنه عندما أهان المصرى في السباق الذي كان بينهما هذا النمط التربوي النادر هو ما يحتاج إليه الحكام في سياسة ملكهم ، وهو نمط يحبب الناس . ويجعلهم يألفون الحاكم ويتفانون في مساعدته في أمر ملكه كما يعين على نشر الأمن والطمأنينة ، فيستقر الملك وتستقيم الحياة ويعم الرخاء .